المحاضرة الخامسة/ فردينان دو سوسير وظهور النظرية اللسانية الحديثة:

مقدمة:

 إنّ تناول اللسانيات الحديثة يعني الحديث عن عالم لا يخفى فضله في تأسيس كثير من المفاهيم النظرية التي ستنتشر فيما بعد، ويستعملها كثير من علماء اللسانيات بعده هذا العالم هو: فردينان دو سوسير صاحب كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة"

أولا/ فردينان دو سوسير أب اللسانيات الحديثة:

 يعد فردينان دو سوسير زعيم مدرسة جنيف، وهو" لساني سويسري، ولد في جنيف عام (1857)، نشر عندما كان طالبا في ألمانيا مذكرة" حول النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندوأوروبية" ثم أطروحته الموسومة ب " حالة الجر المطلق في اللغة السنسكريتية" عام (1881)، حاضر في مجال الدراسات المقارنة في فرنسا في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، ثم عاد إلى جنيف و حاضر بها بعد ذلك، توفي عام(1913)، من أهم كتبه:" محاضرات في اللسانيات العامة" وهو كتاب نشر بعد وفاته عام(1916)" ، و يعود فضل نشره إلى كل من شارل بالي(Charles Bally)، و ألبرت سيشهاي(Albert Sechehaye).

والملاحظة التي ندرجها هنا هي أن كثيرا من المفاهيم التي حملها هذا الكتاب كانت معروفة في الأوساط اللسانية قبله، لكن سوسير استطاع أن يقدمها منسقة شاملة وقد كانت متناثرة في آراء علماء آخرين، كما دعا إلى ضرورة اعتماد الوصف والتحليل المباشر للظواهر اللغوية في اللسانيات، فقدم نظريته في شكل ثنائيات.

ثانيا/ ثنائيات فردينان دو سوسير:

 قدم سوسير أفكاره في شكل ثنائيات أهمها: الدال/ والمدلول، اللغة و/ الكلام، اللسانيات السانكرونية و/ اللسانيات الدياكرونية، العلاقات التركيبية؛ التوزيعية و/ العلاقات الاستبدالية، المكتوب و/ المنطوق.

وسنحاول أن نشرح أهمها:

1-الدال و/ المدلول: تحدث (فردينان دو سوسير) عن مفهوم الدليل اللساني (Le signe linguistique) على أنه " *كيان نفسي ذو وجهين اثنين: الدال و/ المدلول، حيث إنّ الدال هو الصورة السمعية؛ التي ليست الصوت الفيزيائي المحض وإنّما الأصوات مع أثرها النفسي، والمدلول هو الصورة الذهنية التي يوحي بها الدال*."

ويمكن أن نشرح هذه الثنائية اعتمادا على شرح سوسير لها في كتابه كالآتي:



الدليل اللساني (Le signe linguistique)

حيث تمثل الصورة السمعية؛ الدال(Signifiant)، وهو الحروف بترتيبها الموضح (ش+ج+ر+ة) مع أثرها النفسي، وهو ما يسميه(سوسير):" الصورة السمعية" ويقابل "المفهوم"؛ المدلول(Signifier)، وهو صورة الشجرة كما ترتسم في الذهن، حيث إنّ طبيعة الدال خطية زمنية، وطبيعة المدلول ذهنية، وإن كان كلاهما يخضع للعامل النفسي.

ومن خصائص الدليل اللساني عند سوسير أنّه:

- نفسي، ثنائي، اعتباطي (العلاقة بين الدال والمدلول غير مبررة أو معللة)، يلغي الذات والإيديولوجيا(المرجع).

2-اللغة و/الكلام:

 قدم(سوسير)أفكاره معتمدا مفهوم النظام، أي الاهتمام بالقانون العام الذي يحكم الظاهرة اللغوية، حيث عرف اللغة قائلا:" *اللغة نظام من الأدلة اللسانية*" أما الكلام فهو" *الـتأدية الفردية للغة*"، حيث إنّ طبيعته متغيرة، وأشكاله متعددة، بينما اللغة هي قانون عام تشترك فيه الجماعة اللسانية ينظم كلامها وسلوكها، وقد فرق (سوسير) بينها وبين اللسان متسائلا في كتابه(CLG):" *ما اللغة؟: إنّها، بالنسبة لنا تختلط مع اللسان، فما هي إلّا جزء محدود وجوهري، من أجزائه، وهذا صحيح. إنّها، منتوج اجتماعي لملكة اللسان ومجموع تواضعات ضرورية تبناها الكيان الاجتماعي من أجل السماح بممارسة تلك الملكة عند الأفراد. واللسان في كليته؛ متعدد الصيغ غير متجانس، ويشمل مجالات عدة: فيزيائية، وسيكولوجية؛ نفسية، في الوقت نفسه. وهو ينتمي إلى مجالين الفردي والاجتماعي. كما أنّه لا يسمح بتصنيفه ضمن أي من أصناف الوقائع البشرية لأننا لا نعرف كيف نستخرج وحدته. بينما اللغة على خلاف ذلك، هي كل في حدّ ذاتها، ومبدأ تصنيف*."

حيث للسان جانب اجتماعي هو اللغة، وجانب فردي هو الكلام؛ متباين من فرد إلى آخر، ما جعل (سوسير) يختار اللغة موضوعا للسانيات لأنها كلية تسعى للحفاظ على ثباتها الذي تصنعه سلطة الجماعة. لذلك اهتم (سوسير) باللغة وأجّل الاهتمام بالكلام لأنه متغير يصعب ضبط كل أشكاله، وملاحظتها وبناء قانون يحكمها.

 3-اللسانيات التزامنية؛ الآنية(السانكرونية)و/اللسانيات الزمنية؛ (الدياكرونية):

 تحدث (سوسير) عن نوعين من الدراسة اللسانية: دراسة تتناول اللغة في نظامها الداخلي، محاولة تفسير وشرح العلاقات الداخلية التي تشكل نظاما لا يحيل إلّا على نفسه وتسمى بـ: "اللسانيات التزامنية (Linguistique synchronique)، وتهتم بوصف اللغة في زمن ما، أو في زمن واحد لذلك تعرف باللسانيات الوصفية باعتبار المنهج، ونوع ثان من الدراسة يناول تطور اللغة عبر الزمن ويسمى ب" اللسانيات الزمنية (Linguistique diachronique)، التي تصف تطور نظام اللغة في مراحل مختلفة، لذلك تُعرف "باللسانيات التاريخية".

4-العلاقات التركيبية و/ العلاقات الاستبدالية:

إنّ نظم الكلام يقتضي ترتيب وحدات القول في سلسلة تخضع لعامل الزمن حيث لا يمكننا النطق بعنصرين في زمن واحد، و إنّما تتتالى الوحدات اللسانية زمنيا، وهذا ما يشكّل " العلاقات التركيبية" التي من خصائصها: أنّها زمنية، حضورية على المحور الأفقي، كما أنّ اختيار الوحدات اللسانية يخضع لتناسب الدلالة بين العناصر المدرجة على المحور الأفقي، وتناسب الوحدات المختارة مع موضوع الكلام، حيث يتم الاختيار على مستوى الذهن قبل أن تظهر الوحدات على مستوى التوزيع الأفقي، وتسمى عملية الاختيار على هذا المحور بـ" العلاقات الاستبدالية، التي من خصائصها أنها ذهنية، لا زمنية.

ثالثا/ فردينان دو سوسير ومقولة النسق:

عُدّت الأفكار التي طرحها (سوسير) في محاضراته بمثابة عهد جديد في مجال اللسانيات في العالم، هذا لا يعني أنّ هذه الأفكار لم تكن لها جذور في الماضي، وإنّما استطاع (سوسير) أن يقدمها في شكل نظرية متكاملة، خاصة تأسيسه لمفهوم "النسق"، ذلك أنه تحدث عن اللغة، على أنها نظام (Système)، لا يحيل إلا على نفسه، والنظام هو*:" شبكة معقدة من العلاقات القائمة على أساس اتحاد الهويات واختلافها."* والقول لسوسير، وهذا يعني؛ أنه طرح لأول مرة مفهوما جديدا للنظام، يختلف عن مجموع الأجزاء، فهو كلّ، ولا ينظر إليه إلّا ضمن هذا الكل المتجانس، وقد استبدل البراغيون مصطلح "نظام" أو" نسق" بمصطلح "بنية" واسْتُعمل وصف "البنوية" بدءً من (1928)" حيث استعملها تروبتسكوي ليعرف مجال [الفونيم] " ، فعرفت الدراسات المنبثقة من هذا المفهوم باسم:" الدراسات البنوية" أو" المدارس البنوية" وهي: مدرسة جنيف، الشكلانية الروسية، مدرسة كوبنهاغن، المدرسة الانجليزية(عملها في مجال الصوتيات)، المدرسة الوصفية الأمريكية، التوزيعية، مدرسة النحو التوليدي التحويلي، وحتى مدرسة براغ وإن كانت وظيفية فإنها في جوهرها بنوية.

 وقد قامت هذه المدارس ومن بينها مدرسة جنيف على جملة من المبادئ، حددها (جان بياجيه) في ثلاث أساسية بقوله*:" تبدو البنية بتقدير أولي، مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقى أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدى حدودها أو تستعين بعناصر خارجية، وبكلمة موجزة، تتألف البنية من ميزات ثلاث: الجُمُلة، والتحويلات، والضبط الذاتي*" ويعني مبدأ الجُمُلة أو الكلية أو الكل (La totalité): أنّ كل عناصر البنية تنتظم مع بعضها البعض لتشكل كلا لا يحيل إلّا إلى الداخل. الذي تنسجه العلاقات لا الأجزاء، أمّا التحويلات(Transformation) -وهو المبدأ الثاني-فتعني أن البنية متحولة دائما لكن مع ذلك " *لا تؤدي إلى خارج حدودها ولكنها لا تولّد إلّا عناصر تنتمي إلى البنية وتحافظ على قوانينها*." ويمكن أن نتحدث عن الضبط الذاتي – وهو المبدأ الثالث-ويعني انتظام النسق أو البنية، حيث تسعى كل بنية إلى الحفاظ على قوانين انتظامها ما يؤدي إلى نوع من الانغلاق على حد تعبير (جان بياجيه).

 وقد اختلف العلماء حول ما إذا كانت البنوية "فلسفة" أم " منهجا، غير أنهم يتفقون اليوم على أنها منهج للبحث، يقول (زكريا إبراهيم):" *الواقع أنّ الكثير من البنويين-وعلى رأسهم العالم الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس-قد أعلنوا أن البنوية ليست بأي حال من الأحوال "فلسفة" وإنّما هي مجرد" منهج" للبحث العلمي"*، وهي تُقدم في اللسانيات اليوم كمنهج له آليات اشتغال معروفة على اللغة أهمها: الملاحظة، والتحليل، واكتشاف العلاقات والقوانين، أو ما يعرف بالاستنباط وهي أسس المنهج العلمي. باعتبار اللسانيات هي "الدراسة العلمية الموضوعية للسان البشري".

ويبقى أن نشير إلى أقطاب البنوية وأهم أعلامها وهم: (فردينان دي سوسير) مؤسسها في اللسانيات، والأنثروبولوجي (كلود ليفي شتراوس)، لوي ألتوسير، ميشال فوكو، جاك لاكان وغيرهم.

رابعا/اللسانيات والسيميولوجيا:

تحدث سوسير عن العلاقة بين اللسانيات والسيميولوجيا (La sémiologie) وصنفها داخلها بعدها تبحث في: الأدلة اللسانية في حين تبحث السيميولوجيا في: الأدلة اللسانية و/غير اللسانية، يقول: " يمكننا إذن تصور علم يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، وهو يشكل جانبا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام، إننا ندعوه بالسيميولوجيا (...) وما اللسانيات إلاّ جزء من هذا العلم العام." وبالتالي تكون اللسانيات فرعا عن هذا العلم الذي يبحث في تأويل الأدلة سواء كانت لسانية أو غير اللسانية، لأن مجال اللسانيات ينحصر في البحث في الأدلة اللسانية التي يقدمها سوسير ككيانات نفسية مما سمح له بتصنيف اللسانيات داخل علم النفس عموما.

خاتمة:

لقد سمحت أفكار سوسير بتوسيع دائرة اللسانيات وتحديد مجالها، كما أفاد كثير من العلماء من مصطلحات ومفاهيم سوسير سواء في مجال اللسانيات كأندري مارتيني، ولويس يلمسليف وجماعة براغ وغيرهم، أو في حقول ومجالات أخرى كالأنثروبولوجيا خاصة دراسات كلود ليفي شتراوس، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على عمق فكر سوسير اللساني وحتى السيميولوجي.